من تاريخ لبنان المعاصر

سمعان اللبكي وابنه غطّاس

بقلم ميلاد رزق الله ، قائمقام قضاء المتن

الكثير غير المدوَّن من التاريخ اللبناني ، حافلٌ بالروائع والعبَر ، وهذا العصر بحاجةٍ الى الاطلاع عليها للاقتباس والذكرى . ومن هذا الكثير صفحة من تاريخ لبنان يوم ارسل فيه المثل البليغ المأثور « هنيئاً لمن له مرقد عنزة في جبل لبنان ! » سأحاول الإلمام بها داراساً بنوع خاصّ شخصيتين بارزتين اذ ذاك هما سمعان اللبكي ، وابنه غطّاس

سمعان اللبكي

حكم الامير حيدر ابي اللمع

يتم سمعان من ابيه ولدًا وحيدًا ، قاصرًا . وكانت مخايل النجابة والذكاء لامعة فيه . وكان من المفروض ، بعد يتمه بهذه السن ، ان يبتدىء يكافح من صباه في سبيل الحياة .

غير ان امه ، وكانت مثالًا من العصامية والشمم ، ابى عليها انوفها ان تهون للدهر ، واوحت اليها فراستها ان في نفس ولدها تربة خصيبة جديرة بالعناية ، ومن الحيف ان تهمل . ففرضت على نفسها واجب الامومة فوق واجب الامومة ، وجعلت تكافح حتى استطاعت ان تعلم ولدها وتثقفه .

وكان من فضل الاكليروس الماروني على العلم ان مطارنة الارشيات كانوا يفتتحون مدارس ابتدائية في القرى ، كانت تعرف « بمدرسة تحت السنديانة » وكانت المعاهد الوحيدة في البلاد . وكان من حظ سمعان ، وحظّ امه وامته ، ان ينتدب مطران بيروت لمدرسة بعبدات معلّماً متخرّجاً في مدرسة عين ورقة . فاخذ سمعان عن الشدياق يوحنا ابي زيد ، من ساحل علما ، مبادئ الاصول

العربية والسريانية والآداب الدينية ، واجاد الخط ، والحساب ، والانشاء العصري.

وكان لسمعان ، فوق مواهبه العقلية والنفسية ، موهبة صوتية ممتازة . فعني الكهنة بتلقينه الانغام الطقسية يستعينون بصوته في الحفلات الدينية.

وكان الحاكمَ الاقطاعيَّ في ذلك الزمن على المتن والقاطع الاميرُ حيدر اسماعيل ابي اللمع، سيّد قصرَي صليما وبكفيا، وهو مَن اجمع المؤرخون والرواة انه من افضل من ولي الحكم بعدله وحكمته وحلمه ودينه . وهو اول امير اعتمد في حكومته على نوع من الشورى .

بلغ الامير خبر سمعان . فاستقدمه الى قصره واقامه خادماً لمجد القصر . وفتن الامير صوت سمعان فضنّ به ان يشذّ عن اصول الايقاع ، فاقام له الملحّن المشهور الخوري جرجس فرح معلماً. وكان سمعان لا يزال في مبتدا العقد الثاني ، فاقتبس من خدمة الامير ، ومن تعليم الكاهن ، دعائم لذكائه ، ومبادئه ، وجودة عنصره ، جعلته رجل عصره في ادوار الحياة.

وارتاح الامير الى معارف سمعان ومبادئه واخلاقه ، فاتخذه كاتبية ، واعتمده طول حياته في عهدَي حكمه الاقطاعي والنظامي. و«كاتبية» الامير امين سرّه، ورئيس كتّابه.

عندما حالت دولة الامراء الشهابيين فضت السياسة التي كانت مقررة لاضعاف لبنان ان يقسم الى قائمقاميتين : واحدة للنصارى ، وواحدة للدروز ، وجعلت طريق الشام حدًا بينهما . وعين الامير حيدر قائمقام النصارى . فتناولت ولايته مقاطعات المتن ، وكسروان ، وزحله ، والبترون ، والكوره ، وما يليها حتى النهر البارد في عكار.

وكانت للامير شخصية بارزة ، ورأي سديد ، ونظر بعيد . فلم يستقلّ بادارة الاحكام . بل استعمل الشورى والّف ديواناً يسترشد بآرائه فازدهر حكمه واشتهر عدلًا وحزماً وحلماً.

واختار لهذا الديوان ثلاثة اركان من رجال الحصافة والحكمة ، والاصالة ، والوطنية واعتمد عليهم ، ووكل اليهم ان يسنوا للاعمال دستوراً يحدّد حقوقه وحقوق معاونيه ، وواجبات الوظيفة والامة عليه وعليهم جميعاً.

فوضعوا نظاماً بسيطاً ، جامعاً ، موجزاً ، ذا شقين : الاول يحدّد حقوق الحاكم على معاونيه ، ويقيّده بمشورتهم ، وتنفيذ ما يقررون . والثاني يحدّد حقوق معاونيه عليه . وكلا الشقين يوجبان على الحاكم ومعاونيه السهر على مصالح العباد والعمل بنشاط ، حتى في الليل ، عند مقتضى الحال . ويفرضان عليهم طهارة الوجدان ، وحياة الضمير ، والعفة ، والنزاهة ، والتجرد عن الميول لا سيما العاطفية ، والسرعة في قضاء المصالح ، ومراعاة اصحاب الاماكن البعيدة في تقديم اعمالهم وسرعة انهائها ، ولا سيما الفقراء .

ولا بأس بايراد نصّ هذا الدستور ، فان فيه ، على ايجازه وبساطة مبناه ، معاني طريفة ومبادئ سامية لا غنى عنها في عصرنا على شدّة التباين بين العصرين ، من حيث العلم ، والتمدن ، والغنى ، والرقي . وهذا هو النص :

يجري العمل بما هو مذكور بالدقة والتحري
في ١٣ ايار سنة ٥٣ المقام
حيدر اسماعيل

بيان القرار الذي صار في انتظام القائمقامية ما بين سعادة القائمقام وما بين ارباب الاعمال المختصة في ديوانه

بند اول

هوامش بخط الامير نفسه

١ — يطلب من سعادة القائمقام بان يجتمع يوميا مع الكتاب ويتخابر معهم اقله ساعة باول النهار ام في اواخره ويصير الالتفات الى المداولة وقبول الراي الصوابي منه

هذه غير ممكنة الا بعض ايام

٢ — يلتمس من القائمقام بان لا يأمر بامر كلي كان ام جزوي الى الكتاب بلسان احد اجنبي عنه الا اما بالكتابة اما بطلب احد لديه ويأمر بما يكون ويصير الاجراء كما يقر القرار اذا لزم مراجعة

يجرا ذلك على الكليات فقط وان امكن بالجزئيات

٣ — جميع الاعراضات والتحريرات التي ترد باسم سعادته فمن الضروري ان يطالعها قبل الجميع ولذلك

المختصة فقط والمفتوحة يكن سلوم طلب صاحبها تقرا وتعرض

يطلب من عدالته بان يعطى وقتا ملايما لقبول ذلك كي لا يحصل ثقلة على دمته من الاهمال في تعويق اصحاب الاشغال فالتي يقتضى احالتها الى المجلس تحال والتي يمكن انهاوهـا في ديوانه تتحول اليه ثم جميع التحريرات التي تصدر من ديوانه لاي جهة كانت ولو جزئية لا بد له قبل ان يمهرها اما انه يطالعها بذاته اما ان يقراها عليه اخر منهم على انفراد دون حضور احـد اجنبي ولا يحصل ضجر من سعادته عند ثقل الاشغال وازدحامها كما يطلب من دمته لجانب العدل الالهى

بحسب اللزوم والامكان

٤ ــ كون الامر يحتاج من سعادتـه الى الثقة الكاملة بجميع ارباب عمله فكذلك يطلب منه ان يصهر على اعمالهم واذا لحظ على احـد شيء مغاير فيلتمس من سعادته استعمال الدقة بالفحص السري عن ذلك ولدى الثبوت يصير مطالبة المشكى عليه سرا والمبادرة لاصلاحه اذا كان ذلك من الاشياء الممكن اصلاحها واذا كان ذلك من الاشياء الجسيمة فيصير احالتها واجراء مقتضاها بوجه العدالة

بند ثانى

١ ــ يطلب من الكتاب اصحاب العمل المذكورين الامانة والاخلاص وحفظ السر واعطاء الراي الصايب البعيد عن كل غاية بشرية حاضرين كل الحذر عن التصحب والميل لا سيما نحو محبة اللحم والدم

٢ ــ يطلب من المذكورين بان لا يبتوا امرا ولا يحلو مشكلا ولا ينوو مشغلة من قبل ان يكن صار

اجراء ذلك واشهاده من سعادته ثم لا يحق لهم ان يفتحوا او يطالعوا التحريرات المختومة الواردة باسم سعادته ويلزمهم ايضا ان يعرضوا لسعادته جميع الكتابات الواردة باسم كل منهم واذا وجد مضمونها متعلق باشغال القائمقامية ويعتمدوا امره بها

٣ ــ يطلب من اصحاب الاعمال المذكورين ان يعرفوا الزامهم بتعاطات وظائفهم بالنشاط والصهر والتيقظ وان لا يدعو احدا يتضرر من قبل اهمالهم عالمين بان الله يطالبهم عن مثل هذا الاهمال لكون المعاش المرتب لهم لا يستحقونه الا بمقابلة اتعابهم ومثل ذلك يطلب منهم عدم تعويق واعطاء اجوبة التحريرات لاي من كان باوقاتها ولا سيما مامورياتاوليا الامور وافادات امنا الدول الاجنبية ثم باقي التحريرات حسب مقتضاها ويتلاحظ ثقل المشاغل وبعد امكنت اصحابها وفقر حالهم والاضرار التي يتكبدوها من قبل الاهمال لان الله هو المراقب على اعمالهم والمجازي عليها

٤ ــ انه لمقتضى قانون العدل والدمة والرسم الملوكاني بان جميع المامورين والمتوظفين يلزمهم ان يبتعدوا عن الرشوة وعن قبول جميع الهدايا كلية كانت ام جزوية ولو باي حجة كانت فلذلك يلتمس عن عدالة سعادة القائمقام ويطلب من المتوظفين وساير المتعاطين اعمال القائمقامية بان يبتعدوا كل البعد عن كل رشوة وعن قبول كل هدية حسبما ذكر ولا يقدر احدهم ان يطلب ضميره او يفتي لنفسه في قبول شيء من ما ذكر لا بنفسه ولا بواسطة اهل بيته ام اولاده ام خدمه ولا عن يد اجنبية لا داخلا ولا خارجا لا

سرا ولا جهرا تحت ثقل الخطا الثقيل والذي يثبت عليه شيء من ما ذكر يجرا عليه بمقتضى القانون والذي لا تشهر ذلته الله هو المراقب عليه والمنتقم منه

ويقدروا ان يكون حضورهم للديوان بايام الصيف قبل الشمس وبالشتا شروقها ويلزم يبقى منهم انسان الى قبل الغروب وذلك بالمداورة بينهم كي لا يتعطل شروط الترتيب او يحدث ثقله

٥ — يطلب من اصحاب الاعمال المذكورة ان يحضروا الى الديوان ويتعاطوا الاشغال يوميا من الساعة واحدة ونصف بعد الشمس الى قبل الغروب باعتين ما عدا يوم الاحد والعيد والجمعه التي لا يكون فيها عيد بطالى فيتعطل نهار الاربعا للراحة فهذا هو الرسم الاعتيادي واما عند حدوث اشغال مهمة او غير اعتيادية فينبغي الاهتمام بنهايتها وان لزم الامر فيكون العمل بالليل ايضا

٦ — فمن كون سعادة القائمقام قد اعتمد ويعتمد دايما على ارباب اعماله المذكورين في كافة اشغال القائمقامية وهو واثق بخلاصهم كما قد تعهدوا على انفسهم بذلك وبالمراجعة لسعادته بكل امر يقتضي فلذلك بمقتضى هذا الترتيب يلزم المذكورين ان ياخذوا على انفسهم درك كل ما يتعطل في الاعمال المذكورة وان يحذروا كل الحذر من حدوس المنقضات بالاوامر التي تصدر ومن اجراء المظالم والتغييرات المخالفة للرضى الرباني ولولي الامور لانه يطلب من اصحاب مثل هذه الوظائف ليس فقط العدل بل والحزم ايضا

في ١٣ ايار سنة ٨٥٣

قابل يا فيه	قابل يا فيه	قابل يا فيه
سمان لكي	عيد حاتم	مخايل تصار

هذا هو النظام الذي جعل حكومة الامير حيدر حكومة صالحة ، رشيدة ، سجل التاريخ مآثرها في امجد صفحاته . وسيجيء الكلام عن غطاس فنرى انه

كان ، في خدمة المتصرّفين ، اميناً على المبادئ التي اشترك ابوه بسنها في دستور الامير ، وكانت كل فضائل هذا النظام موفورة في نفس غطاس في عهد لم يكن كل زملائه كزملاء ابيه .

مات الامير حيدر بعد اثنتي عشرة سنة من ولايته القائمقامية مرحوماً مأسوفاً على شخصيته وفضائله ، فخلفه الامير بشير احمد ابي اللمع ، سيّد قصر برمانا . واتخذ الامير بشير ايضاً سمعان كاخية له . ولكن هـذا الامير لم يوفق في حكومته ، رغم مقدرة الرجال الذين ألف منهم ديوانه . فعُزل بعد اربع سنوات ، وولي بعده الامير حسن فلم يطل حكمه ، بل عزل في السنة الستين ، وأسندت القائمقامية الى يوسف بك كرم . فتولاها ثمانية اشهر . ثم وضع بروتوكول متصرفية جبل لبنان ، وعُيّن داود باشا متصرفاً على الجبل ، وانشئ بجانبه مجلس الادارة الكبير فانتُخب سمعان فيه عن مرارنة المتن وتوالى تجديد انتخابه فيه مدة داود ، وفرنكو ، وبعض مدة رستم .

حكومة المتصرّفين

ان حكومة داود باشا جاءت عقيب اضطرابات داخلية ومعارك هائلة تركت في البلاد بحيرات من الدماء ، ومزّقت وحدتها شر ممزق ، وفرقتها طوائف دينية ، والقت في الخواطر قلقاً ، وفي النفوس غلياناً ، وبين الطوائف بغضاً وحذراً .

وكان مفروضاً على اول حكومة بعد البروتوكول ان تضع للبلاد نظاماً ينطبق على روحها وعاداتها وطبائعها وتقاليدها ، ويوافق بنوع اخص تلك الحال الروحية التي كانت سائـدة من حيث الانقسام الطائفي عقيب تلك الفواجع والجلائل .

وبالرغم من خراجة الظروف ، فقد توفقت حكومة داود باشا التأسيسية الى تنظيم لبنان باقضيته ونواحيه ، ومحاكمه ، ومخافره ، وموظفيه ، تنظيماً يراعي الطوائف والمناطق ، ويوازن بين حاجات الشكل الحكومي ومقدرة المكلّف ، ويحفظ العدل ويوصل المتداعين الى حقوقهم بطرق سهلة المنال قليلة النفقات ،

فضلاً عن هيبة الحكومة التي كانت وازعاً بين الناس وحاجباً للدماء . وبلغت الحال من السلم العام انه ان حدثت حادثة قتل ولو عادية تردّد صداها في البلاد ، واهتمت لها الحكومة اهتمام الحكومات الاخرى بالفتن.

وقد نعم اللبنانيون بهذا النظام وظلوا يرغدون بحسناته ، منذ ما وضع حتى دهمته الحرب الكبرى ، وشرعت السياسة والتجارب تهدم في اركانه.

اجل ، ان تنظيم لبنان الصغير ظلّ محتفظاً بانطباقه على حاجات البلاد والعباد، رغم تقلّب الاحوال بتقلّب الرجال ، ورغم تطوّر الاحكام باختلاف الحكام. وظل اللبنانيون يرغدون به ويحمدون حتى حسدهم جيرانهم ، واتخذوا من لبنان موئلاً عند الملمات . وكان اللاجئ الى لبنان امنع من عقاب الجوّ . وعلى ذلك اطلق المثل المشهور القائل : « هنيئاً لمن له مرقد عنزة في جبل لبنان ! »

كان مونتسكيو يقول : « ان الذي يضع القوانين هو اقليم البلاد وتاريخها وعادات اهلها وطبائعهم ».

ولقد كان تنظيم لبنان كما وصفنا لان الذين وضعوه هم شيوخ لبنانيون حنكتهم الخبرة والتجربة ، وتضلعوا من السياسة اعواماً وكان في مقدمتهم سمعان اللبكي الذي تمرس بالسياسة والادارة منذ ما ترعرع على يد ذلك الحاكم الفذّ الامير حيدر . وظل يوافق السياسة اللبنانية في جميع ادوارها حتى جاء دور داود ، وانتُخب نائباً في المجلس الكبير ، وكان من أرجه المعوّل عليهم في هذا التنظيم.

وعاش سمعان نائباً لامعاً له في المجلس شأنه المشهور. وظل انتخابه يتجدد، حتى جاء دور رستم باشا.

كان رستم باشا كثير الفضائل والحسنات . ولكنه تورط في محاربة الاكليروس الماروني ، وبلغ به التهوّر الى نفي الرجل الكبير المطران بطرس البستاني.

وراع سمعان هذا التهوّر فلم يتورّع ان يصارح رستم بما في هذه السياسة من خرق وخيم العاقبة ، وان ينهاه عنها بالنصيحة. فوقع ، بهذا السبب ، وبسبب آخر ، سوء التفاهم بين الرجلين.

كان رستم سريع الانفعال، شديد الانتقام. ولم تكن حسناته الجمة ومداركه

الواسعة لتهذب من نفسه هذه السورة فاضمر لسمان الخصومة. وعندما حان موعد الانتخاب النيابي في المتن ارمز الى الامير يوسف علي ، فانقام المتن ، ان يناوئ سمان ففعل . ورسب سمان . وفاز بالنيابة يوسف افندي حبيب الزغزغي . وظهر الزغزغي رجل عمل وعصامية ووطنية شأن معظم المتنيين الذين توالوا على كراسي النيابة أو تولوا ارائك الاحكام.

ثم ان رستم لم ينتاس ما كان لسمان من آثار جلى وآيات مثلى في خدمة البلاد طيلة الحياة فتدارك ما فعل ، وعينه مديراً لصندوق المال في قضاء المتن، ثم نقله مديراً لناحية عبيه ، ثم مديراً لناحية جبيل.

وعندما انقضت ولاية رستم ، وسادت حكومة راصا باشا ، آثر سمان الاعتزال فاستقال ، وانصرف الى اعمال البر والتقى استعدادا للحياة الخالدة . وفي مبتدأ العقد التاسع مات ميتة صالحة مبرورة ، متمماً واجباته المسيحية . وخلف اربعة رجال : فارساً ، وكروان ، وغطاساً ، وميلاداً.

اما فارس فكان موهوباً بالقوى العقلية والبدنية ، ولكنه كان حيراً . فاستخدم مديراً لسجن المتن. ومن الطرائف التي تدل على مقدار القوى البدنية فيه هذه الحكاية شهدها ورواها المرحوم جدي ابو حاتم سعد رزق الله قال:

كنت في زيارة فارس بدائرة السجن ، وجاء الضابطة ببدوي موقوف . وكان المركز في جديدة المتن ، وامام السجن بستان رملي مشجر بالتوت. وعند باب السجن تمرد البدوي لا يدخل واعتصم بكلتا يديه بشجرة توت في عنفوانها. ووقع نضال بينه وبين الضابطة فاعجزهم ولم يزحزحوه . وتحمس مدير السجن لما شهد ، فانتخى وامسك بالبدوي ، ونتره نترة واحدة اقتلعت البدوي والتوتة واصولها من تحت التراب ، واصبحوا جميعاً داخل السجن.

والراوي كان على جانب من الرزانة والبطولة والرجولة ، وكان يروي هذا الحادث بالدهشة والاعجاب.

اما كروان فكان حسن الخط فاتخذه الامير يوسف علي ، فانقام المتن ، كاتباً للقائمقامية . وميلاد كان من رجال الاقتصاد فانصرف للتجارة في مصر والزى.

غطّاس اللبكي

واما غطاس ، بيت القصيد ، فهو مجموعة من الاخلاق والآداب والفضائل قلما يجود الزمان بمثلها.

وُلد غطاس في ٢ اذار سنة ١٨٤٨ ونشأ في بيت ابيه على المبادئ التي عرفناها في الوالد، والعصامية التي عرفناها في الجدة . وفي مدرسة القرية ، تحت السنديانة ، تلقى مبادئ القراءة والخط. وكما كانت مدرسة بعبدات موفقة على عهد ابيه الى معلم ماهر كانت على عهده موفقة الى معلم امهر ، هو الشدياق حبيب الزيناتي من بحرصاف ، احد ابناء جمعية القديس كفاريوس اليسوعية.

وكما كان للاكليروس الماروني الفضل الاعم في نشر المعارف في قرى لبنان حتى المزارع ، كان للحكومة الافرنسية فضل تاريخي في نشر العلوم العالية في المدارس الراقية. فقد كان للقنصلية الافرنسية منح مدرسية في المدارس الكبرى تخصصها بالنابهين من ابناء البيوتات الكبيرة.

وكان غطاس واحداً ممن نالتهم منحة القنصلية ، فدخل مدرسة عينطوره سنة ١٨٥٧ ، وعمره يومئذٍ تسع سنوات وجعلت مرتبته بالصف الابتدائي. وفي السنة الثانية وثب الى الصف الثالث ، وفي السنة الثالثة وثب ايضاً الى الصف الاول، وفي السنة الرابعة احرز الشهادة النهائية ممتازة وهو ابن ثلاث عشرة سنة. ولم يكتفِ بهذا القدر من العلم بل رغب ان يتعمق في الادب الافرنسي. وكانت حداثة سنه تسمح له بالبقاء في المدرسة فراجع دروس الصف النهائي سنة خامسة، وخرج ابن اربع عشرة سنة متقناً الادب العربي والادب الافرنسي والعلوم.

ولم تشبع نفسه مدرسة عينطوره ، وهي ارقى مدارس عصره ، فعكف على المطالعة في بيته حتى اصبح واسع الاطلاع في التاريخ والفلسفة والاجتماع والاقتصاد والسياسة والهندسة والفنون الجميلة.

وظل يدرس على نفسه كل ايام حياته ، فيأتي من عمله الى مخدعه وينكب على الدرس والمطالعة . وحدث على عيد فرنقو باشا ، وكان هو كاتباً في القلم العربي ، ان جاء من عمله فوجد في البيت اجتماعاً معقوداً من ابيه ومن المرحومين

الشيخ بشاره الخوري ، والشيخ عبد حاتم ، وحسن بك شقير ، فقام بواجب المجاملة ثم انصرف الى مخدعه للمطالعة فاستدعاه المجتمعون واخذوا عليه انزواءه عنهم وهم في مجلس ابيه لشؤون وطنية ، فاعتذر قائلاً : « انتم تهتمون بما للحاضر وانا اهتم بما للغد » .

كان غطاس موهوباً في الخطابة والانشاء . فاذا خطب او كتب اوجز واحاط باطراف المعاني بغير تكلف او تردد . وكانت له حافظة امينة في الترجمة قلما وجدت في غيره . يقف المتصرف فيخطب بعض الساعة ثم يقف غطاس فيترجم بطلاقة لسان ورباطة جنان ، فيؤدي معاني المتصرف بالضبط والدقة لا يغفل شاردة ولا يبهم معنى .

ودرس اللغة التركية ، اذ كان موظفاً ، فاجادها في ثمانية اشهر وكتب بها . وقد عثرنا في مخطوطاته على اقتراح منه باستعمال الحروف اللاتينية للغة التركية . فيكون الذي نفذه كمال اتاتورك في عصرنا هو ما اشار به غطاس منذ نصف قرن .

وعثرنا ايضا في مخطوطاته على قطعة طريفة في اصول الموسيقى والايقاع قابل فيها الفروق بين الموسيقى الشرقية والموسيقى الغربية ، ووصف تأثير الواحدة من الموسيقيين على الامة الاخرى ، وبحث في الضوابط التي اخترعها الافرنج لموسيقاهم وتحداهم في اختراع ضوابط للموسيقى الشرقية مقيدة بحروف وارقام ونقط ، وكان يحسن من الموسيقى الشرقية عزف الكمان .

وسنة ١٨٨٥ كان رجل العلم والعمل المطران يوسف الدبس ممتنياً عنايته الكبرى بمدرسة الحكمة . ولحظ هو وغطاس ان كتب التدريس الموضوعة لقواعد اللغة الافرنسية انما هي موضوعة لابناء فرنسة ، وان المدارس الشرقية بحاجة الى كتاب يوضع خصوصاً للشرقيين فتكلف المطران غطاساً فوضع الكتاب ونشره ، واستعملته مدرسة الحكمة وسائر المدارس اللبنانية والسورية ، وهو اول مؤلف لقواعد الافرنسية مشروح بالعربية باسلوب من السهل الممتنع .

وله قصائد عديدة باللغة الافرنسية . اما مؤلفاته النفيسة التي يؤسف على ضياعها فهي تاريخ لبنان وجغرافيته ، ومعجم رجال لبنان العاملين ، وقاموس عربي افرنسي يقال انه كان افضل ما وضع من هذا النوع . هذه المؤلفات لم

تنشر بـل بقيت مخطوطات ثم لعبت بها يد الجهالة بعد موته فسرقت وبيعت للدكاكين خلال الحرب الكبرى ورقاً للصرّ ، ولم يسلم منها الّا القليل . ولكن هذا القليل نفيس بلغته ومعانيه ، وهو حريّ بالنشر .

ولنعد الى الحديث عن الناحية العملية :

انقلبت سياسة لبنان السنة الواحدة والستين الى نظام المتصرفية ، وكانت البلاد بحاجة الى المعارف . وكان داود باشا اول المتصرفين ، وكانت له حسنات منها العناية بنشر المعارف،فانشأ في عبيه المدرسة الداودية الشهيرة، وعني بها عناية خاصة ، وفتش لها عن رجال اكفاء يديرون شؤونها وصفوفها .

سأل ادارات المدارس العليا عن اسماء النابغين في مدارسهم . وكانت ادارة عينطوره معجبة بوثبات غطاس في تلقي العلوم ورسوخ قدمه فيها ، وبعبقريته وسرعة خاطره ، وبعراقة نفسه في الجودة والنبل والمبادئ ، فجعلت اسمه في رأس لائحتها . فاستدعى المتصرف غطاساً وولاه في المدرسة الداودية بعض الشؤون .

وهنا فضيلة من فضائل السياسة اللبنانية القديمة تلفت اليوم النظر وتدعو للعبرة . وذلك ان سمعان اللبكي كان مقرباً من المتصرف ، وهو نائب المتن في المجلس، ومع هذا لم يقدم له ابنه ولا التمس له عملا في دوائر الحكومة . ولولا ادارة عينطوره ، لما عرف داود باشا ان لنائب المتن ولداً نابغة تحتاج اليه الدواوين .

بدأ غطاس حياته العملية فبرزت عبقريته تتهادى بين الدعة والبساطة وانكار الذات . ولكن سوء البخت جعل زنابق نفسه الناضرة في جوار شائك حاد . فما شرع يلمع في مهنته بالمدرسة حتى دبت روح الحسد في واحد من زملائه فجعل يكيد له .

وغطاس كان نبيلاً مترفعاً ، راسخاً في المبادئ المسيحية،فقابل الحسد والمكائد بالتساهل والاغضاء . ولكن الحسود لم يعتبر بهذا الكبر الشريف بل زادته نيالة غطاس اشتعالاً يلتهم صبره ويضيع رشده حتى دس السم لغطاس في شرابه تخلصاً من حياته . وفعل السم بجسم غطاس . ولكن الطب تداركه فوراً لمعرفة

نوع السم اذ كان لا يزال منه في الابريق وفضحت الجريمة. وهنا ظهرت اخلاق غطاس باجلى معانيها ، وتألقت روحه المسيحية بازهى فضائلها ، فهو فتى في الخامسة عشرة او السادسة عشرة من عمره لم يتغلب عليه نزق الشباب ولا خامره حب الانتقام ، ولا لجأ الى المحاكم للاقتصاص بل صفح عن حاسده وتخلى له عن منصبه واستقال.

ولئلا يتبادر الى ذهن ان للعجز تأثيراً في هذه الشهامة اذكر المطالع ان غطاساً ادى للشهامة هذا القسط العظيم وهو في ريعان عزه وقوته ؛ اذ كان ابوه نائباً عن المتن في مجلس الادارة الكبير فضلاً عن حظوته هو في عين المتصرف.

استقال غطاس من وظيفته في المدرسة الداودية ، فلم يشأ المتصرف ان يستغني عن علومه ومواهبه فعيّنه كاتباً في القلم العربي . وظل في هذه الوظيفة مدة داود ومدة فرنكو ايضا حتى ايام رستم باشا .

وفي السنة ١٨٧٣ ، قدم رستم باشا متصرفاً ، بعد ما عركته السياسة وعركها في مراكز عالية . اذ كان سكرتيراً لنجيب باشا يوم ارسل لاخضاع علي قرمانلي باشا ، والي طرابلس الغرب سنة ١٨٣٦ . ثم رقي معاوناً لفؤاد باشا في بخارست سنة ١٨٤٨ . ثم جعل سكرتيراً عاما لنظارة الخارجية ، ثم وكيلاً سياسياً في تورين . ثم رقي الى رتبة سفير ووجه الى رومية بمهمة خاصة وقت التئام المجمع الفاتيكاني سنة ١٨٧٠ . ثم عُيّن سفيراً في بطرسبرج. ومنها نقل الى لبنان شيخاً وقوراً مهيباً ، بعد اختبار سبع وثلاثين سنة في سياسة الدولة العثمانية باعظم مراكزها.

وكان ، فضلاً عن هذه الحنكة ، عالماً واسع الاطلاع طلق اللسان قوي الحجة ، يسطو على اذهان جلسائه بسمو مداركه ، ويحرص على هيبته في مجلسه كل الحرص.

وكان في حكومته عادلاً منصفاً لا يراعي في الحق . بل كان يزداد شدة اذ تكون الدعوى بين ظالم قوي ومظلوم ضعيف حتى تكاد شدته تتجاوز حدود الانصاف.

وكان حديد المزاج ، قوي المراس ، ماضي الاجراء ، شديد الرقابة يشرف

بنفسه على اعمال المتصرفية جميعاً حتى احكام القضاة . ولم يكن يصدر من محكمة الاستئناف حكم جزائي الّا بعد اطلاعه عليه وعلى ملفّ الدعوى واستحسانه له. فسارت الاعمال في عهده سيرًا حميدًا ، وسادت هيبة الحكومة. ولم يكن للرشوة اثر مدة ولايته لانه كان قاسياً مستبدًا سريع العزل. فكانت حكومته تعطي الحق لصاحبه عن اخصر الطرق فلا تهدر من اوقاته ولا تضيع من امواله.

قلت ان رستم قدم سنة ١٨٧٣ ، وفكّر فور وصوله ان يختار له مستشارًا صالحًا يعتمد على علمه وخبرته واخلاصه ، فكتب الى ارباب المعاهد العالية يسألهم عن نوابغ معاهدهم فوردته الاجوبة وكان جواب عينطوره مصدرًا باسم غطاس . وكان غطاس لا يزال في كتابة القلم العربي ، فاستدعاه المتصرف اليه وجعل يختبره ولم يلبث ان رقّاه الى رئاسة القلم العربي ، وجعله مستشارًا ، وترجمانًا خاصًا ، وناظرًا للمعارف . فقام غطاس بشؤون هذه الوظائف جميعاً ، يتناول عنها مرتباً واحدًا هو مرتب رئاسة القلم العربي . وهذه حسنة من حسنات ذلك الزمان.

كان غطاس في الخامسة والعشرين من عمره يوم اتخذه رستم باشا مستشارًا له. ومن يعلم ان رستم باشا كان شيخًا من دهاة الاتراك المعدودين في السياسة ، كما تقدّم عنه الكلام ، يعلم قيمة غطاس اذ يكون بهذا السن مستشارًا لذلك الشيخ . واعتمد رستم على غطاس ، واخلص غطاس لرستم . والمطلعون على مجرى ذلك الزمن يعرفون ان لغطاس فضلًا في كثير من الشؤون التي خلدت لرستم ذكرًا حميدًا في تاريخ حكومة لبنان.

وانتشر ذكر غطاس ، واشتهرت حظوته في عين المتصرف الحديدي ، فهرع الناس اليه قصد لمصالحهم . فكان يخدم القاصي والداني بروّة وشرف ودعة وتكران ذات ، وظلّ في عزه كما كان في عزلته ، بنفسجة متضمة تختبئ ازهارها بورقها فلا يعرف بها الناس لولا اريجها .

وتزوج غطاس فكان في بيته مثالًا أعلى لارباب العائلات. وزوجته من اعلم بنات عصرها وارقاهنّ ثقافة ، سليلة بيت عريق في الوجاهة والعلم والاخلاق ،

هي ميّ الشدياق كريمة العلامة الشيخ طنوس يوسف الشدياق ، صاحب كتاب « تاريخ الاعيان في جبل لبنان ».

ولكنه لم يرزق بنين فتبنى ابن اخيه المرحوم نعوم لبكي الذي عرفناه رئيساً لمجلس النواب اللبناني ، ومنشئاً وصحفياً من الطبقة العليا.

ومن فضائل غطاس السياسية ان اباه خسر كرسي النيابة بسبب مناوأة القائمقام له في انتخابه ، وكان هذا الامر في عهد رستم باشا ، وكان في طاقة غطاس ان يتدارك هذا الحدث لو كان من خلقه ان يزدلف الى المتصرف ، وهو عنده في المقام الذي عرفنا.

واستمرّت ولاية رستم باشا عشر سنوات وثلاثة اشهر . ثم اجتاح البلاد دور واصا باشا بقضه وقضيضه. وادرك غطاس بفراسته ، فور تعرفه الى كربليان ، انه لن يسلم في حكومة واصا باشا مَن كان على مبادئ غطاس ، فبادر الى الانسحاب من حكومته في اسابيعها الاولى . واستقال ايضا في اليوم نفسه عدد من اكفاء المأمورين واحكمهم كحنا بك ابي صعب ، وبطرس بك كرم.

عندما انسحب غطاس من خدمة الحكومة ، بادر اليه السيد جبور الطبيب يدعوه لادارة مصرفه الشهير في بيروت ، فقبل غطاس المهمة وكان في ادارة البنك شريفاً امينا ومخلصاً نزيهاً كما كان في خدمة الحكومة.

وكان في ذلك العهد يوسف افندي الياس مهندس المتصرفية يشتغل في اختراع الحركة الدائمة على مغول المدّ والجزر. وكان يوسف افندي صديقاً لغطاس حميماً فاستنجده بمعلوماته العلمية . فكان غطاس يعاونه في اوقات فراغه ، وجعلا يجاهدان معا حتى توفقا الى نجاح الاختراع.

حينئذٍ سأل يوسف افندي صديقه ان يعاونه بالمال ايضاً لانشاء المشروع . فباع غطاس املاكه التي نالها من ميراث ابيه ، وضمّ اليها ما ادّخره من نتاج اعماله ، فبلغت القيمة الفاً ومائتي ليرة عثمانية قدمها كلها من اجل المشروع.

واقام المهندس مشروعه على شاطئ البحر ، واصطنع له المحرّكات تدور بقوة المدّ والجزر ، ودشّنه بحفلة حافلة فخمة . ولكن سوء البخت قضى على العملية اذ ان الآلة لم تقوَ على احتمال القوة التي كانت تجتذبها فتهدمت على نفسها

وتحطمت في اليوم الثالث من عمرها . وكان هذا الاخفاق تعاسة لغطاس . ولكن غطاساً العريق في الفضائل النفسية ، ظل صديقاً حميماً للمهندس بعد نكبته كما كان قبلها .

ثم ان يوسف افندي الياس ، نال بعد نكبته ، امتيازاً بمدّ سكة حديدية بين حيفا ودمشق ، واخذ متر بيلنغ على نفسه ان يعقد شركة تشتري الامتياز وتنشئ السكة . وطلب بيلنغ الى سفارة الدولة العثمانية في لندن ان تهديه الى رجل يعتمده في سورية ، وكان السفير رستم باشا ، فهداه الى غطاس . فاستدعى بيلنغ غطاساً الى حيفا ، وولاه ادارة اعمال الشركة . ولكن الشركة لم توفق وتوقف عملها وانفرطت ادارتها .

وكان في عكا اميران عجميان من الاسرة المالكة فاستقدما غطاساً ودرسا عليه آداب الافرنسية والعربية ، وكانت له عندهما منزلة محترمة .

ثم ان غطاساً عاد الى بيته في حدث بيروت . وكان مقر نعوم باشا في دار الشيخ عبدالله الشدياق مجاوراً لبيت غطاس مقابلاً له . فخشي المقربون حساد غطاس ان يكون هذا الجوار سبباً للصلة بين الرجلين ، فجعلوا يذكرون بين حين وآخر على مسمع المتصرف ان في الحدث رجلاً محتالاً انفق ماله في طرق تدلّ على اختلاله ، وانه هو الذي اوقع رستم باشا في ورطته .

وهذا التعرّض منهم لرجل محتالٍ لفت نظر نعوم باشا ، ودفعه الى البحث عن حقيقة الرجل ، فسأل عنه الامير مصطفى ارسلان ، قائمقام الشوف . فشهد الامير بغطاس شهادة شريفة . وذكر عن مداركه وعلومه ورصانته ومزاياه ، واطنب في خبرته بالشؤون اللبنانية .

حينئذٍ استدعى المتصرف غطاساً يختبره بنفسه ، وكلفه ان ينشئ له بالافرنسية بياناً حدّد له مواضيعه . فكتبه غطاس بليغاً وافياً ، ولم يكن فيه اي دليل على الاختلال ، بل كان دليلاً واضحاً على سموّ المدارك .

ورغب المتصرف ان يختبر سرّ الاختلاف بين غطاس واولئك الذين يتمون عليه ويتهمونه ويطعنون على فضائله ، ففاتحه بحديث الموظفين فكانت اجوبة غطاس مقتصرة على البحث في علل اختلال الجبل ، وافتقاره ، وتشير الى

وسائل اصلاحه وانعاشه ، ولم يكن ليعرض لاحد بسوء.

فعظمت قيمته في عين نعوم باشا وقربه ، وعرض عليه قائمقامية جزين فاباها. ورغب ان يأخذ مركزاً مستقلاً عن اعمال السياسة ومغالبة الناس ، فعُيّن ناظراً لحصر التبّاك في لبنان ، وهي الوظيفة التي احتفظ بها حتى الممات.

ولما حانت مدة نعوم ، وكان يطمح الى التجديد ، شعر بحراجة الموقف ، ولمس ما جناه عليه محيطه ، فحاول ان يتدارك الامر ، فاكثر من تقريب غطاس اليه وجعل يصطحبه في جولاته وزوراته حتى يكتسب بمعنوياته الرأي العام . ولكن هذا الامر لم يفد ، لانه وقع بعد اوانه . وذهب نعوم وجاء بعده مظفر باشا.

جاء مظفر اواخر سنة ١٩٠٢ ، وتعرف فوراً الى غطاس ، فاحترمه ، وجعل يصطحبه في جولاته ويكلفه بكتاباته الهامة.

وبعد ما جال في البلاد اذاع على الامة اللبنانية منشوراً يظهر فيه استعداده لاسعاد لبنان ويشير الى العلل التي وجدها في سياسة البلاد والى الحاجات التي لمسها ، والى الوسائل التي ينوي اتخاذها للاصلاح والانعاش.

وكان لهذا المنشور وقعه الحسن ورأى فيه اهل المعرفة بلاغة واصالة وخبرة عميقة فجعلوا يبحثون عن منشئه . ولو لم تتعرف ادارة مطابع النصير الى خط غطاس في المسودّة وتنشر الخبر على السائلين ، لما عرف احد ان غطاساً هو مَن انشأ بلاغ مظفر باشا الشهير ، لانه لم يكن من دعاة الظهور والشهرة بل كان عنوان الرصانة والكتمان والتواضع.

وقرر مظفر تعيين غطاس رئيساً للقلم العربي ، عازماً ان يقلد رستم في اعتماده عليه. ولكن المنية حالت بين غطاس واستلامه الوظيفة . كان في نيسان ٢٦ اذار في جولة رسمية بمعية المتصرف ، وجاء مساء الى بيته وبينما هو في مخدعه يصلي فروضه الدينية ، وكان حريصاً عليها ، فاجأته المنية بغتة ، وله من العمر اربع وخمسون سنة واربعة وعشرون يوماً.

لقد كانت حياته قصيرة ، ولكن اعماله فيها كانت كثيرة وجليلة.

وكان لنعي غطاس دويّ في البلاد استقبله الرجال بوجوم واسف . واقيم

له مأتم عظيم حافل .

وبعد دفنه ، اجتمع فريق من اركان البلاد وبحثوا في تخليد ذكره فقرروا ان يُنصب له تمثال في ساحة لبنانية عامة ، وفوراً تألفت لجنة من كبراء اللبنانيين وافتتحت اكتتاباً لاجل التمثال ، وكان من اركانها سليم بك الموشي ، ومسعود افندي العازوري ، والشيخ يوسف الجميل ، وعبود بك ابي راشد ، وبطرس افندي شكرالله .

وتقرر ان ينحت التمثال في ايطالية ، وكان هناك الاباتي لويس عبيد البعبداتي نائباً عاماً للرهبانية الانطونية لدى الكرسي الرسولي ، فاهتم بالأمر ، ونُحت التمثال من رخام ناصع عند اشهر نحاتي رومة . ولكنه لم ينصب حتى اليوم ، فهو معتزل في زاوية بدير مار انطونيوس بعبدا ، يتطلّع الى الايام لعلّ فيها من رعاة الفضل والحمية ، ودعاة العلم والوطنية ، مَن يدعو الى اخراجه من عزلته الرهبانية ، ورفعه على قاعدة في احدى الساحات التاريخية ذات العلاقة بتاريخ عظمة

رحم الله غطاساً ! ونفح في ناشئتنا من روحه الطاهرة ، ومن مواهبه الباهرة ، ومن فضائله الزاهرة !